وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

هذه النجف التي توشوشني!
عبد الحسين شعبان

القدس العربي : 2009/8/19م

كنت أحرّض السيد هاني فحص باستمرار على كتابة النجف التي في داخله، ولعلّي كنت وأنا أستمع اليه، كأنني أطالب نفسي بإخراج النجف التي في داخلي، بصورتها المرئية وصورتها اللامرئية، الى حيث المعنى والدلالة. هكذا كنت أشعر ان النجف متغلغلة في داخلي، لكأنني عاشق لا يروي ظمأه الى معشوقته شيء، في فضاء من الحب واللانهايات الأبدية.
العلاقة بيني وبين النجف يتعذّر تفسيرها، هي علاقة أبعد مما تراه العين أو تتخيّله، هي علاقة ترتبط بالذكرى والذاكرة والرغبة المستمرة والصيرورة والحلم المتصاعد، لذلك ظلّت النجف تسكن مخيلتي، كنص شامل أقرب الى سبيكة ذهبية وقصيدة متواصلة الابداع ولغة غير قابلة للانقطاع.
الحوار بيني وبين النجف يتواصل منذ عقود من الزمان، بوتيرة مستمرة تارة، ومنقطعة تارة اخرى، لكن هذا الحوار العفوي لم يكن بلا نظام، انه يأتي أحياناً مكثفاً بصور متناسقة، وأحياناً أخرى مفاجئاً بصور متنافرة، لكنها منسجمة فكراً ولوناً، متجانسة حتى باختلافها وتنوّع طيفها الادبي والديني والفني والاجتماعي.
كنت باستمرار أتحدث مع النجف التي أعرفها، أتحدث معها بصفة الحضور رغم الغياب، كنت أريدها دائماً حاضرة، حتى لو كانت على صورة برقٍ أو شعاعٍ، بايحاء وإيقاع سرعان ما ادرك كنهه، بإشاراتها الغامضة المحببة، اللذيذة.
ألتجئ الى النجف كنص ادبي وقراءة جدلية، لقبابها الذهبية، للحكمة والفلسفة المزدانة، لصوت المواكب الهادرة، والنساء الجميلات، والمناشير السرّية والجنائز المستوردة والعمائم المصدّرة، حسب الشاعر احمد الصافي النجفي. بسرعة أستطيع أن أعرف الباطن من الظاهر والخفي من المكشوف والغامض من الواضح، حين تلتبس فيها بعض الأمور ويستشكل الفكر والدين والجمال والأمل.
متعتان للجمال في النجف، متعة العقل ومتعة الشعر، حيث الفكر المنفتح في المجتمع المنغلق، حسب تعبير السيد مصطفى جمال الدين، والانغلاق الظاهري، يحمل تحت ثيابه انفتاحاً وتطلعاً للتغيير والتجديد وحركة تمرد وانعتاق وتوق للحرية بلا حدود، ولعل هذا التجلّي ليس سوى ما تختزنه النجف من طاقة ابداعية- عقلية خلاّقة، ووهج شعري متدفق مثل شلال!!.
لا يمكنني أن أغلق باب النجف في رأسي فقد ظلّت مشرّعة تدخلها الريح من كل الاتجاهات، عند كل قراءة نقدية وضعية، تتجاوز الآني الى المستقبلي، والماضي الى الحاضر. وهي قراءة أبعد من حدود السلطة والسياسة بمعناها الديني- الثيوقراطي والآيديولوجي. ويخطأ من يتوهم أن بامكانه حصر النجف بقالب أو مجموعة أو فئة أو طائفة، فالنجف هذا المعهد الدراسي المفتوح، ظلّت تتوالد فيها منصّات الفقه والفكر والفلسفة واللغة والأدب والشعر بشكل خاص أكثر من ألف عام، منذ أن جاءها الامام الطوسي هارباً من بغداد العام 449 هجرية، حيث نظّم حوزتها العلمية وأضفى على منهجها الدراسي حركية وديناميكية، احتفظت بها رغم محاولات تقييدها وتجميدها أو حبسها بأطر معينة.
وقد تركت المدرسة النجفية تأثيراتها العلمية والثقافية والادبية على مختلف الاوساط والحقول والفئات، وكانت ملتقى الاعراق والقوميات، فيها تتفاعل الثقافات وتتداخل الحضارات، في اطار انساني وبُعد اسلامي وهوية عربية، وفيها يتعايش المتدين وغير المتديّن، اليساري واليميني، ولكل رافده ولونه وطيفه الذي أضفى على النجف هذه الفسيفساء المتحدة ـ المتناسقة- المختلفة في إطار مؤتلف.
علّمتني هذه النجف كيف أؤالف وأؤاخي بين الحجر والشجر، الماء والهواء، وبين المادة والخيال، وبين الشعر والواقع، فصرت أشعر أنني أولد فيها من جديد، بل كل يوم، انها تعيد خلقي، وكأنني موجود بفضلها، أي مستمر بواسطة ذلك الحبل السري الذي ما زلت مرتبطا به.
لا أنظر الى النجف كماضٍ، بقدر ما هي مستقبل، حتى وإن كان الحاضر ملتبساً، حيث تتشوّش المرآة وتضطرب الرؤى وتتلبّد الغيوم، لكن النجف استعصت وظلّت مكابرة حتى كادت صداقتها مع التمرد تصبح تاريخية .
هذه النجف التي تُعيدُني الى طفولتي، ما تزال تجرّني الى الامام وتحركني باتجاه القادم، المفاجئ، الجديد، الذي كان وجهاً من وجوهها المُدهشة، المفعمة بالحيوية!
لعلي كلّما ازددت غوصاً في النجف، ازددت قدرة على التواصل مع الآخر، وقدرة على تفهم وقبول التعايش، وحين تكون الهوية من القوة والفاعلية تكون مفتوحة وحيوية وقابلة على التلاقح مع الغير.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذه النجف ظلّت تفتح ذراعيها مثل البحر، للفكر الجديد، ولحرية الجدل بلا قيود، للبشر الاحياء مثلما للاموات، حين يسكنون في مقبرة 'الغري' ـ وادي السلام- التي لا تعيد أحداً، وفي فضاء فضي مفتوح وسراب لا متناهٍ، فليس للصحراء من حدود.

لا انظر الى النجف كمدينة أو مكان أو جغرافيا، لكنني أراها أفقاً يعيد خلق نفسه باستمرار، وهي صيرورة تنتج نفسها وتبتكر العلائق والروابط مع الآخر، بحب متبادل وبثقة بالنفس وقدرة على اثبات 'الانا' من خلال الآخر أيضاً، بالتسامح في أحيان كثيرة وبغيره حيناً آخر عندما تقتضي المواجهة والاقتحام.

بيني وبين النجف يحدث نوع من الفراغ احياناً، أو قلْ مسافة لا أحاول ردمها، إذ أنني أشعر برغبة غامضة على ابقائها، وهي رغبة ناجمة في عدم التطابق أو التماهي، فالمسافة تتجسد أحياناً بين الانسان وذاته، وإذا ما التقت ذات الانسان مع روحه تتحقق تلك الكينونة الرمزية الخاصة، ليكون الانسان مائزاً رائزاً، هو ذاته التي لا تشبه شيئاً آخر، عندها تسهل عليه العلاقة مع الآخر، وإذا كانت المسافة تتمثل في شيء من البعد المكاني، فهي لا تعني الابتعاد الزماني- الرمزي، وإذا كان في المسافة ثمة تباعد، فهي ذاتها ما يجمّع وما يوحّد، حيث تتمفصل في هوية التكامل الجامعة، لكنها متنوعة وكثيرة، وكأنها حسب أدونيس 'تتعدد فيما تتوحد وتتجمعن فيما تتفردن' .

النجف توشوشني ... أسمع همسها واسئلتها الطافحة، 'أناها' وكينونتها وتفاعلها مع الآخر، تخالقها وابتكارها مثل الموسيقى ذات الأصوات المتناغمة، المختلفة، المؤتلفة، كأن كل صوت جاء من وترٍ له مكانه الذي لن يتحقق التناسق (الهارموني) الاّ بوجوده، ومن دونه سيكون العزف نشازاً.

لا يمكن إلغاء تعددية النجف، فلن تكون نجفاً من دونها، المعرفة تعددية والعلم، تعددي والشعر تعددي والفلسفة تعددية والفن تعددي والسياسة تعددية، والانسان تعددي، والذوق والجمال والأمل تعددي أيضاً.

في مدرسة 'الأخوند' كانت ثلة من المتمردين الأوَل: باضت بيضتها بعد المشروطة وصراعها مع المستبدّة، في 'معقل الاحرار' الوكر السرّي بلغة السياسة والمحفل الفكري بلغة الثقافة، كانت حلقة تمرد، ضمت سعيد كمال الدين وعباس الخليلي وسعد صالح وعلي الدشتي وأحمد الصافي النجفي، ولعلها هي البؤرة الاولى للتمرد في القرن الماضي، وكان أحد رواد المدرسة الفقهية النجفية محمد سعيد الحبوبي، الشاعر والثائر والعاشق للجمال والحرية، ثم جاء جيل التمرد فشمل إضافة الى أسماء الاعلام في اعلاه، الجواهري وآل الخليلي، عباس وجعفر وبعدهما عبد الغني، وكانت هذه البؤرة تجمع حولها: حسين مروة ولاحقاً محمد شرارة وآخرين، هؤلاء الذين انتقلوا من الفقه الديني الى الفكر والفلسفة، ومن الايمانية العقائدية التبشيرية المستقرة، الى التساؤلية العلمانية التفكيرية النقدية القلقة.

ولم تقتصر المسألة على النخب الفكرية التي تجاوزت حدود المدرسة الدينية التقليدية التي طلّقتها متجهة الى مدرسة أخرى، بل شهدت المدرسة الدينية ذاتها، رغبة في التجديد ومحاولة في نفض الغبار الذي علق بالفكر الاسلامي، لا سيما هيمنة المدرسة التقليدية التي تركت المعاني وجوهر الدين، لتتمسك ببعض الشكليات وتقتصر على النقل وتُهمل العقل.

وشملت المدرسة التجديدية السيد محمد باقر الصدر الذي أسس لتيار اسلامي فكري جديد، رغم أنه لم يستكمل تطوره، الذي انقطع حين اختفى قسرياً العام 1980 وهو في أوج عطائه، وكذلك محمد مهدي شمس الدين ومحمد حسين فضل الله ومحمد بحر العلوم ومصطفى جمال الدين وآخرين، الذين كانوا يمثلون الحلقة الاولى في الجيل الثاني للمجددين من داخل المدرسة الدينية.

لا يمكن اختزال النجف بفريق سياسي أو عقائدي، علماني أو اسلامي، فهي مثّلت الموزاييك كلّه بجميع ألوانه وصوره، هي معقل ثورة العشرين ورحابة فكر الحبوبي وعلي الشرقي وعبد الكريم الجزائري وأحمد الصافي النجفي وسعد صالح والجواهري وسيد ابو الحسن وكاشف الغطاء ومحمد رضا الشبيبي وحسين الشبيبي وسلام عادل ومحمد باقر الصدر وموسى صبّار وعبد الحسين أبو شبع وعلي الصراف وبطولة نجم البقال والفتى الشجاع محمد موسى، هي مدينة الجدل والحوار، والتعايش والمشترك الانساني.

للنجف سلطة عليّ، سلطة عليا، أظنّها سلطة الحق، تواجهني بالقوة الناعمة، وليست تلك السلطة سوى المعرفة خارج حدود اللاهوت ومعه أحياناً، لكأني بهذه العلاقة الروحية أردد ما ذهب اليه المتنبي حين يتحدث عن الوطن، المنبع الاول، الذي 'ينبت العزّ'، وعزّ النجف في حريتها، في معرفتها، في كرامتها، في تعددها، في كونها مدينة خارج حدود الانصياع لهذه اللافتة أو تلك، انها تمانع وترفض وتتمرد، لأنها تعرف كم لديها من مخزون للضوء لا يمكن حجبه في جميع الاحوال والأهوال...

ضوء النجف يفيض ليشرك الآخر ويشاركه، القريب والبعيد، بما فيه 'الغريب'... انه ضوء المعرفة المتجدد، دون حدود أو توقف ، أسمع صوتاً مثل الرعد أحياناً يأتيني من بعيد، ويظل صداه في أذني يحضر ويغيب، لكنه لا ينقطع، هادراً أو خفيضاً، يوشوشني كلاماً كأنه استحضار لصوت النفّري المتصوّف الكبير وهو ما انفكّ يلاحقني:

اني أحدثك لترى
فإن رأيت
فلا حديث!

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

كاتب من العراق

This file was downloaded from QuranicThought.com